بالشكر ولم يَـأت بأسلوب خـبـرى ، إنمـا جـاء هكذا ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾[يس] بصيـغة الاسـتفهـام ، وكأن الله تعالى يقـول لنا : أجيـبوا أنتم ، فقد اسـتأمنتُكم على الجواب ، وقد علم سبـحانه أن الجواب لا يمكن أنْ يكون إلا الإقرار بالشكر على النعمة .

ثم يقول سبحانه :

﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾

كلمة ﴿سُبْحَانَ (٣٦)﴾[يس] تعنى : التنزيه المطلق لواجـب الوجود الأعلى عن أنْ تحكمه قـوانين الموجود نفسه ؛ لذلـك تُقال فى كل أمر عجـيب كما فى قصـة الإسراء والمعراج ، فـقد استهلَّ القـرآنُ سورة الإسراء بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِه (١)﴾ [الإسراء] فالإسراء بسيدنا رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، ثم الصعود به إلى السماء السابعة فى جزء فى الليل يُعَدُّ أمـراً عجيباً ، وينبغى ألاَّ نقيسَ هذا الفعل على قوتنا نحن ، بل على قـوة الفاعل ؛ لأن الفعل يجب أنْ يُقارن بقوة فاعله قوةً وضعفاً .

وسبـق أنْ قُلْنا لتوضـيح هذه المسـألة : إننى لو قلتُ : صـعدتُ بابنى الصـغيـر قمـة افرسـت مثـلاً ، أتقول لى : كـيف صعـد ولدك الصغير قمة افرست ؟

فالحق سبحانه فى قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِه (١)﴾ [الإسراء] يقول لنا : لا تتعجبوا من هذه المسـألة ؛ لأن محمداً لم يَقُلْ سريتُ ، إنما قـال : أُسْرِى بى ، فأنا الذى أسـريت به وأنا مُنَزَّه عن الزمان ،

ومُنزه عن المكان وعن القوة ، وإذا كان كل فعل يُقاس زمنه بقوة فاعله فَقِسِ الزمن على الفاعل الأعلى سبحانه ، وعندها ستجد لا زمن .

وقلنا : إنك حين تذهب إلى الإسكندرية مثلاً ماشياً تستغرق عدة أيام ، أمّا بالسيارة فتستغرق عدة ساعات ، وبالطائرة عدة دقائق ، وبالصاروخ ثوانى ، إذن : كلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، وعلى هذا قِس الإسراء والمعراج .

لذلك تجد أن هذه الكلمة ﴿ سُبْحَانَ ① ﴾ [الإسراء] لا تُقَال ولم تُقَل من قبل إلا لله تعالى ، مع كثرة الجبابرة فى الأرض ، ومع وجود مَن ادعى الألوهية ، ومَن قال : أنا ربكم الأعلى ومع ذلك لم تُقَلْ إلا لله ؛ لذلك نقول فى ذكر الله : سبحانك ولا تُقال إلا لك ، لماذا ؟ لأنها تعنى التنزيه المطلق ، وهو لا يكون إلا لله .

وكلمة (سبحان) مصدر يعنى : لله سبحان أى تنزيه قبل أن يوجد مَنْ ينزهه ، فهو مُنزَّه فى ذاته قبل أنْ يوجد مَنْ يقول سبحان الله ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يخلق ، ورازق قبل أنْ يرزق أحداً ، فالصفة موجودة فيه سبحانه قبل أن يُوجد لها متعلق ، كما تقول : فلان شاعر ، أهو شاعر لأنه قال قصيدة رائعة ، أم هو شاعر قبل أنْ يقولها ؟ نعم هو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا موهبة الشعر عنده ما قالها .

إذن : فصفات الكمال كلها موجودة لله تعالى قبل أنْ يوجد لها متعلق ؛ لأن هذه الصفات هى التى أوجدتْ متعلقها .

وكما ذكر القرآن كلمة المصدر (سبحان) ذكر المشتق منها من الماضى ، فقال سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ① ﴾ [الحشر]

وذكر المضارع فى قوله تعالى :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ۝١ ﴾ [الجمعة]

إذن : الحق سبحانه مُسبَّح قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ثم لما خلق الخَلْق سبحتْ له كلُّ المخلوقات ، وما زالت تُسبِّح وستظل تُسبِّح ، فما دام الكون كله مُسبِّحاً فلا تخرج أنت عن هذه المنظومة ، وسبِّح معها : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ ﴾ [الأعلى]

والتنزيه المطلق للحق سبحانه له مقامات ثلاثة :

الأول : أن تُنزِّه ذاته سبحانه عن كل الذوات .

الثانى : أنْ تُنزه صفاته سبحانه عن كل الصفات ، فأنت تُوصف بالغنى ، لكن غناك ليس كغنَى الحق سبحانه ، أنت موجود والله موجود ، فهل وجودك كوجوده سبحانه ؟ ..الخ

ثم **الثالث :** أنْ تنزه فعله سبحانه أنْ يشبه الأفعال ، فإذا قيل : الله فعل كذا . إياك أن تقيس فعْله تعالى بفعلك ؛ لذلك قلنا فى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ۝١ ﴾ [الإسراء] قسْها على قوة الفاعل سبحانه ، لا على قوتك أنت .

الحق سبحانه حينما يأتى بشىء يعلمه المخاطبون الأولون لا يغلق خزائن فضله ، إنما يترك لنا رصيداً احتياطياً لكل ما يجد بعد ذلك نتيجة التطور والتزاوج فى قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ ﴾ [يس] ، فقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ ﴾ [يس]

فهو غير معلوم للمخاطبين أولاً ، لكن سيُعلم فيما بعد ، وأبرز آيات القرآن التى أشارت إلى هذه المسألة قوله سبحانه : ﴿ وَالْخَيْلَ

﴿وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

فجاء قوله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل] رصيداً احتياطياً لما استجدَّ بعد ذلك من وسائل النقل والمواصلات ، كالسيارات والطائرات والصواريخ .. الخ .

فإنْ قلتَ : فلماذا جاءت هذه الأشياء المستجدَّة على سبيل الإجمال ؟ نقول : لأن العقل لم يكُنْ مستعداً لأنْ يقبلها ساعة الخطاب ، وهو لم يَرَ شيئاً من هذا ، لكن حين يوجد الشيء يراه صراحة ، فقال سبحانه على سبيل الإجمال ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل] لأن كل يوم سيأتى لنا بجديد وبعجائب لم نَرَهَا من قبل ، وآخر ما شاهدناهُ من ذلك الصواريخ ، ومَنْ يدريك لعلنا نرى عن قريب ما هو أعجب منها ، وعندها سنُدخل كل هذه الأشياء تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

كذلك هنا فى قوله تعالى ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] فنحن نعلم الأزواج فى﴿مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ (٣٦)﴾[يس] وشاهدناها مثلاً فى تلقيح النخيل وغيره من المزروعات ، ونعرف منها الذكر والأنثى فى النخيل وفى الجميز مثلاً ، لكن هناك مزروعات أخرى لا نعرف فيها الذكر من الأنثى ، وهذه الأنواع تُلقِّحها الرياح بقدرة الله كما قال سبحانه : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢)﴾ [الحجر]

وفى بعض المزروعات جعل الخالق سبحانه الذكورة والأنوثة فى العود الواحد ، وغالب الظن أنها فى المزروعات الضرورية للأقوات كالذرة والقمح ، فليس فيهما عود ذكر وآخر أنثى ، إنما فى العود الواحد كعود الذرة مثلاً نجد فى أعلى العود سنبلة تحمل حبَّات لقاح الذكورة وتحتها كوز الذرة الذى تخرج منه شعيرات تمثل الأنوثة

وتتلقى حبات اللقاح التى تبعثرها الرياح من أعلى .

لذلك إذا لم تخرج هذه الشعيرات وتبرز من الكوز (يدكَّر) كما يقول الفلاحون يعنى : لا يُخرج كوزاً ، ولا تتكوَّن بداخله حبَّات الذرة ، لماذا ؟ لأنه لم يتلقَّ حبات الذكورة .

لذلك من العجائب أنك تجد حبات الذرة فى أسفل الكوز أكبر مما يليها إلى أعلى وبالتدريج ؛ لأن كل شعيرة من الشعيرات متصلة بحبة من حبات الكوز ، وتمثل هذه الشعيرة القناةَ التى تنقل اللقاح إلى الحبة ، لكن الشعيرات التى تنزل إلى أسفل الكوز تخرج منه قصيرةً متفرقة ، مما يتيح لها أن تتلقى أكبر كمية من اللقاح على خلاف الشعيرات الأعلى ، فإنها تكون طويلة متراكمة بعضها على بعض ؛ لذلك لا تأخذ كفايتها من اللقاح ، فتكون حبَّاتها أقلَّ حجماً ، إلى أنْ تضمر فى أعلى الكوز وتتلاشى .

ونحن جميعاً نشاهد صدْق قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢)﴾ [الحجر] حين ننظر مثلاً إلى الجبال وهى جرداء قاحلة ، فإذا نزل عليها المطر اخضرَّتْ ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور ؟

والحق سبحانه وتعالى فى قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] إنما يُطمئننا على امتداد النعمة وامتداد المنعَم عليه ، فبالتزاوج يبقى النوع ويتكاثر ، والزوجية موجودة فى كل شىء ، وكلمة زوج لا تعنى اثنين كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى : الشىء الواحد لكن معه مثله ، فنحن لا نقول للحذاء مثلاً زوج يعنى اليمين والشمال ، إنما نقول زوجين ، ومثلها كلمة توأم ، فكل واحد منهما يقال له : توأم وهما توأمان .

والزوجية موجودة فى كل شىء فى الوجود ، كما قال سبحانه

فى آية أخرى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ..(٤٩)﴾ [الذاريات]

وإذا نظرتَ إلى هذا الوجود كله بعين العلم الفاحصة المجرِّبة المدقِّقة لوجدتَ كل شىء فى الوجود زوجين لاستدامة الصنف ، بعض هذه الأشياء ندرى مسألة الزوجية فيها ، وبعضها لا ندرى به ، وما دام الزوجان يجتمعان للتكاثر فلا بُدَّ من تلقيح أحدهما بالآخر ، فما الذى يدلّنا على ميعاد هذا التكاثر ؟

قالوا : الشىء الذى لا دَخْلَ للإنسان فيه فالله يعلم ميعاده ، ويجعلها تتكاثر كُلٌّ بما يناسبه ، لكن المشكلة عندك أنتَ أيها الإنسان، ولو كانت عندك مقاييس دقيقة فى الذات لعلمتَ أن هناك تغيُّرات كيماوية فى جسمك تحتاج منك إلى دِقَّة ملاحظة ، هذه التغيرات هى التى تدلُّك على ميعاد التكاثر .

والآن اخترعوا ساعة تضعها المرأة بعد الحيض ، وتلاحظ منها درجة حرارتها ، فإذا ارتفعت عن ٣٧° فهذا يعنى وجود تغيُّر كيماوى فى الجسم ، يدل على نزول البويضة ؛ لذلك نرى كثيرين من الأزواج تتأخر عندهم عملية الإنجاب ، لأن المرأة ليست لديها دقَّة الملاحظة التى تعرف منها وقت التبويض الذى يُؤدى إلى الإنجاب .

وذكر الحق سبحانه الزوجية فى ﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] ولم يذكر الحيوان ، لماذا ؟ لأنه سبحانه ذكر الأعلى ، وهو الإنسان الحيوان الناطق ، فالآخر مِثْله وتابعٌ له .

ومعنى ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] أن فى الكون أشياء كثيرة

لا نعلم وجه الزوجية فيها ، وقد نعلمها مستقبلاً مع تَقدُّم العلوم التجريبية ، كما حدث مثلاً فى الكهرباء ، وعرفنا أنها سالب وموجب ، ولا نستفيد بالكهرباء إلا إذا التقى السالب بالموجب ، أما إنِ التقى سالبٌ بسالب أو موجبٌ بموجب ، فالنتيجة تكون عكسية ، والسالب والمُوجب هنا نوع من أنواع الزوجية ، كذلك الحال فى الذرَّة وغيرها مما اكتشفه العلم الحديث .

إذن : فكلمة ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] لها مدلولات وقعتْ ، أخبر الله عنها قبل أنْ نكتشفها لنعلم أن الغيب الذى يخبرنا الله به يأتى كمقدمة لغيب آخر سنعرفه فى المستقبل ، وكأن الحق سبحانه يلفت أنظارنا : كما صدَّق الواقع ما أخبرتُ به من الغيب ، فصدِّقوا ما أخبرتكُم به من غيب الآخرة .

بعد أن تكلَّم الحق سبحانه عن المكان وهو الأرض تكلَّم عن الزمان ؛ لأن الإنسان يعيش بالأحداث ، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فبعد أن حدَّثنا الحق سبحانه عن الأرض وما عليها وهى المكان ، يُحدِّثنا عن الزمان ، فقال سبحانه :

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ (٣٧)﴾[يس] يعنى : خاصة بهم ، وليست آية للكل ؛ لأن النبى ﷺ آمن بفطرته ، ولم يكن بحاجة إلى دليل ليؤمن ، كذلك المؤمن لا يبحث عن الدليل إلا ليردَّ به على مَنْ ينكر .

و﴿اللَّيْلُ (٣٧)﴾[يس] هو قسيم النهار ، فاليوم يتكوَّن من ليل

ونهار، وليس من الدقة فى المقابلات أن نقول اليوم والليل ؛ لأن اليوم يشمل الليل والنهار ، فكلاهما يوم ، لكن البعض نظر إلى قوله تعالى ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا[1] (٧)﴾[الحاقة] فأطلق اليوم مقابل الليل بدل النهار .

والليل ظلمة ، وفيها السكون يشبه النوم الذى تنامه بالليل ، والنوم يشبه الموت ، والليل يقابل النهار لكن لا يعانده ولا يضاده كما يظن البعض ، فالليل يقابل النهار ، وبينهما تكامل ؛ لأن لكل منهما مهمةً فى الحياة ، الليل جُعِل لنهدأ من حركة النهار ونستريح لنستأنف نهاراً جديداً بنشاط ، والنهار جُعِل للعمل وللسعى نستغل فيه راحة الليل .

إذن : هما متعاضدان لا متعاندان ، وكل شىء له مقابل ، إياك أن تأخذه على أنه ضِدّ ، بل انظر إلى أنه شىء ضرورى لا بُدَّ أنْ يكون.

لذلك الحق سبحانه يلفتنا فى الزمن إلى هذه المسألة ، فيقول :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

إذن : لكل منهما مهمة ، ولا يُغنى أحدهما عن الآخر ، ومن دقَّة الأداء القرآنى أنْ يقول سبحانه فى الليل ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وفى النهار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾[القصص] لأن الليل ظلمة ، وأداة

---

(١) الأيام الحسوم : التِّباع إذا تتابع الشىء فلم ينقطع أوله عن آخره . قاله الفراء . ونقله الأزهرى فى تهذيب اللغة ـ مادة : حسم . وقال الخليل بن أحمد فى كتابه العين : « حسوماً . أى : شؤماً عليهم ونحساً » .

الاستدعاء فيه الأذن ، أما النهار فضياء نبصر فيه .

إذن : لا يصح أنْ نجعل من كلٍّ متقابلين متضادين ، فالتكامل غير التضادّ ، كذلك أراد الله تعالى أنْ يَحلَّ بهذه المسألة مشكلة لا تزال العصور تتصارع فيها إلى الآن ، مشكلة التقابل بين الذكورة والأنوثة ، أو الرجل والمرأة ، والآن نسمع مَنْ ينادى بأن المرأة مثل الرجل ، كيف ولكل منهما مهمة نوعية ، إنهما متكاملان مثل تكامل الليل والنهار .

وقد أشار الحق سبحانه إلى هذا التكامل فى قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

ومعنى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾[الليل] يعنى : مختلف ، ولكُلٍّ مهمة يؤديها فى الحياة ، فالذين ينادون الآن بالمساواة بين الرجل والمرأة إنما يظلمون المرأة ؛ لأنهم يريدون للمرأة أنْ تقوم بدور الرجل فى حركة الحياة ، وبعد ذلك يتركون المرأة تقوم هى بالخصوصية التى لا يؤديها إلا هى ، إذن : هى أخذت من مهمة الرجل ، ولم يأخذ الرجل من مهمتها . إذن : الحق سبحانه يخلق المتقابلات لتتكامل لا لتتعارض ، وتتساند لا لتتعاند ، فهى مسألة موزونة بحساب .

وقوله سبحانه : ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ (٣٧) ﴾[يس] السلخ كَشْط الجلد عن الشاة ، فما العلاقة بين هذه المسألة وضوء الليل والنهار ؟ قالوا : الأصل فى الشىء الظلمة ، ولا تظهر الظلمة إلا بمنير طارىء ، فالليل ظلمة ، ثم يأتى ضوء النهار فيستر هذه الظلمة ، فكأن النهار حينما يأتى يستر الظلمة كما يستر جلدَ الشاة لحمُها ، فإذا ما أراد

الحق سبحانه أنْ يأتى الظلام يخلع الضوء ، كما نسلخ جلد الشاة عن لحمها .

إذن : فالليل يأتى على طبيعته لأنه الأصل ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) ﴾[يس] فالظلام عدم نور ، أما النور فإيجاد ، ويحتاج إلى آلة جديدة ، فلو تركت الليل لحاله لظلَّ مظلماً ، ولولا آلة الضوء لظلَّ ليلاً ، إذن : للضوء آلة . أما الظلام فليس له آلة حينما تعمل يأتى الظلام ، أو قُلْ الظلام أمره عدمى ، أما الضوء فأمره وجودى ، فإذا قيل : نسلخ منه النهار فقد شبه الضوء الذى يغطى الظلام بالجلد الذى يغطى لحم الشاة .

والمعنى : نذهب بهذا الغلاف الضوئى الذى يستر الليل ، فيحلّ الظلام أى : يظهر على طبيعته ومن تلقاء نفسه ؛ لذلك جاء الأداء القرآنى بـإذا الدالة على المفاجأة ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) ﴾[يس] فكأن المسألة تلقائية لا تحتاج إلى ترتيب.

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾

الشمس هى آلة الضوء الذى نسلخه عن الليل ، ومعنى ﴿ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا (٣٨) ﴾[يس] أى : لشىء ولغاية تستقر عندها ، والمتتبع لحركة الشمس يجد أن لها مطلعاً عاماً هو الشرق ، وهذا المطلع العام يُقسَّم إلى مطالع بعدد أيام السنة . إذن : فمطالع الشمس مختلفة ؛ لذلك رأينا قدماء المصريين فى معابدهم يدركون هذه الحقيقة الكونية ويحسبونها بدقة ، ويجعلون فى المعبد ٣٦٥ طاقة ، تشرق الشمس

كل يوم من واحدة منها بالترتيب ، إلى أنْ تصل إلى آخرها فى آخر السنة.

وقد عرف الإنسان أن للشمس مجموعة من الكواكب تدور حولها، وسماها المجموعة الشمسية ، وهى تتكوَّن من سبعة كواكب : عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل ويورانوس ، وقد أغرتْ هذه السبعة بعض العلماء مثل الشيخ المراغى والشيخ محمد عبده أن يقولوا إنها السموات السبع ، لكن فى سنة ١٩٣٠ اكتشف العلماء كوكباً آخر هو بلوتو ، وبعدها بعشرين سنة اكتشفوا كوكباً آخر هو نبتون ، فصاروا تسعة كواكب فى المجموعة الشمسية ، كلها فى السماء الدنيا ، ولا صلة بينها وبين السموات السبع ، لكن حاول الشيخان تقريب المسائل الدينية للفهم .

هذه الكواكب فى المجموعة الشمسية لكل كوكب منها دورة حول نفسه ، ودورة حول الشمس ، من دورته حول نفسه ينشأ اليوم ، ومن دورته حول الشمس ينشأ العام ، والدورتان تختلفان فى السرعة ، فإذا كانت دورة الكوكب حول نفسه أسرعَ من دورته حول الشمس كان يومه أطولَ من عامه .

لذلك من الأشياء الملغزة التى تُقَال فى الجغرافيا : ما يوم أطول من عام ؟ يوم الزهرة أطول من عامها ، لأنهم لما حسبوا حركة الزهرة بالنسبة ليوم الأرض وجدوا أن عام الزهرة ٢٢٥ يوماً من أيام الأرض ، ويومها ٢٤٤ من أيام الأرض ، ذلك لأن سرعتها حول نفسها أكبر من سرعتها فى دورتها حول الشمس .

فمعنى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا (٣٨)﴾[يس] أى : الشمس بمجموعتها ، وما يدور حولها من كواكب تجرى إلى نجم يسميه

علماء الفلك (الفيجا) والعرب تسميه (النسر) الواقع ، والشمس تجرى بمجموعتها بسرعة ١٢ ميلاً فى الثانية ، الشمس لها حركة والكواكب التى تدور حولها لها حركة ، وهذه أشبه ما تكون بإنسان يركب مركباً ، فكيف نحسب حركته وسرعته ؟

إنْ كان هو ساكناً فسرعته تساوى سرعة المركب ، وإذا كان يسير فى نفس اتجاه المركب ، فسرعتُه تساوى سرعته فى ذاته (زائد) سرعة المركب ، فإنْ كان يسير فى عكس اتجاه المركب فسرعته تساوى سرعة المركب (ناقص) سرعته هو .

ومعنى ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا (٣٨)﴾[يس] المستقر إما أن يكون نهاية العام ، ثم تبدأ عاماً جديداً ، وتشرق من أول مطلع لها ، أو أن المستقر آخر عمرها ونهايتها حيث تنفض وتُكوَّر وتنتهى .

لكن ، ما الذى يحرك هذه المجموعة الشمسية ؟ وكيف تجرى بهذه السرعة ؟ ونحن نعلم أن الحركة تحتاج إلى طاقة تمدها ، فما الطاقة التى تحرك هذه المجموعة بهذه الصورة وهذا الاستمرار ؟ قالوا : إنها تجرى ، لأن الله خلقها على هيئة الحركة والجريان ، لذلك تجرى لا يُوقفها شىء ، وستظل جارية إلى أن يشاء الله ، فلا يلزمها إذن طاقة تحركها ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ (٤١)﴾ [فاطر]

وفى علم الحركة قانون اسمه قانون العطالة ، وهو أن كل متحرك يظل على حركته ، إلى أنْ تُوقفه ، وكل ساكن يظلُّ على سكونه إلى أنْ تُحركه ، وهذا القانون فسَّر لنا حركة الأقمار الصناعية ومراكب الفضاء التى تظل متحركة لفترات طويلة .

ونتساءل : ما الفترة التى تحركها طوال هذه المدة ؟ إنها

تتحرك ؛ لأنها وضعت فى مجالها على هيئة الحركة فتظل متحركة لا يُوقفها شىء لأنها فوق مجال الجاذبية . إذن : كل الذى احتاجته هذه الآلات من الطاقة هى طاقة الصاروخ الذى يحملها ، إلى أنْ يعبر بها مجالَ الجاذبية الأرضية ، أما هى فتظل دائرة بلا طاقة وبلا وقود .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بفضله فى هذه الحركة ، فيقول ﴿ ذَٰلِكَ (٣٨) ﴾[يس] أى : ما سبق من حركة الليل والنهار وجريان الشمس ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾[يس] يعنى : كل هذا الجريان وكل هذه الحركة إنما هما بتقدير الله ، وكلمة ﴿ الْعَزِيزِ (٣٨) ﴾[يس] هنا مناسبة تماماً ، فالمعنى أنه تعالى العزيز الذى لا تغلبه القوانين ؛ لأنه سبحانه خالق القوانين .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن الشمس وهى آلة الضوء ، تكلم عن القمر لأن له مهمة يؤديها حين تغيب الشمس ، وكأن القمر استعار من الشمس بعض ضوئها لينير بالليل للذين لا يعملون إلا ليلاً كالعَسَس[(١)] والحراس ورجال الأمن وعمال المخابز وغيرهم ، فالقمر كما تعلمون لا يضىء بنفسه ، إنما يعكس بعض ضوء الشمس ، فيأتى ضوؤه هادئاً ؛ لذلك يسمونه الضوء الحليم ، حيث يأتينا لا شعاعَ له ، ولا حرارة فيه .

---

(١) العسس : جمع عَاسّ ، وعَسَّ يعُسُّ : طاف بالليل لحراسة الناسِ [الزبيدى فى تاج العروس – مادة : عسس]

لذلك حين يُعدِّد لنا الحق سبحانه بعض آلائه ونعَمه ، يقول ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ..(٢٣) ﴾ [الروم]

فإذا كان النوم مقصوراً على الليل ، فماذا كان يفعل هؤلاء الذين تقتضى طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ، ويرتاحون وينامون بالنهار ، فهذه الآية مظهر من مظاهر دقَّة الأداء القرآنى ، فإنْ كان الليل هو الأصل فى النوم والراحة لجمهرة الناس ، فلا مانع من النوم بالنهار للقلَّة القائمة على أمر النائمين بالليل .

ومعنى : ﴿ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (٣٩) ﴾[يس] يعنى : قدَّرنا سَيْره فى منازل ومسافات ، هذه المنازل نشاهدها كل شهر فى حركة القمر : التربيع الأول ، والتربيع الثانى ثم البدر ..

والقمر أسرع فى حركته من الشمس ؛ لأنه يقطع فَلَكه فى شهر ، بينما تقطع الشمس فَلَكها فى سنة .

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى المبنى على الهندسة العليا فى قوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾[يس] هذه صورة توضيحية لمنازل القمر مأخوذة من البيئة العربية ، فالعرجون هو عذْق النخلة الذى يحمل الثمار ، ونسميه (السُّباطة) ، وهى مكوَّنة من عدة شماريخ رفيعة ، لكن قاعدتها عند اتصالها بجذع النخلة عريضة ومفلطحة ، هذا العذق يَيْبَس ويضمر كلما تقادم ويعوج و (يتقفع) كلما جفَّتْ منه المائية ، وهذه الصورة توضح تماماً حركة القمر حيث يضمر ويتقفع إلى أنْ يتلاشى آخر الشهر .

وإذا كان القرآن قد شبَّه القمر بالعرجون القديم ، فإن العرب تشبهه بقُلامة الظفر ، كما جاء فى قول شاعرهم الذى راح يرقب

ضوء القمر حتى يغيب فيتسلل إلى محبوبته :

وَغَابَ ضَوْءُ قُمَيْرٍ كنتُ أَرْقُبُهُ   مثل القُلاَمَة قَدْ قُدَّتْ من الظُّفْرِ[1]

ومن الحكمة أن نُشَبِّه القمر العالى الذى لا ندركه بشىء دانٍ ندركه ، وأن نقول لك : هذا مثل هذا لتتضح الصورة .

ثم يقول سبحانه جامعاً بين الشمس والقمر ، وبين الليل والنهار:

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

لا يقال : فلان لا يدرك فلاناً إلا إذا كان سابقه ، كذلك الشمس لا تدرك القمر ؛ لأنه كما قُلْنا سابقها وأسرع منها ؛ لأنه يقطع دورته فى شهر ، وتقطع الشمس دورتها فى سنة .

كذلك : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس] الليل والنهار هما الزمن الناشىء عن حركة الشمس والقمر ، فالنهار ابن الشمس ، والليل ابن القمر ، وفى هذه الآية نَفْيَان ، نفى لأنْ تدرك الشمسُ القمرَ فضلاً عن أنْ تسبقه ، ونفى لأنْ يسبق الليلُ النهارَ ، فإذا كانت الشمس لا تدرك القمر ، فليس معنى هذا أن يسبق الليلُ ابن القمر النهارَ ابن الشمس .

إذن : إياك أنْ تقول إن الليل يسبق النهار ؛ لأن هذه آيات كونية

(١) ذكره ابن عبد المنعم الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى خبر الأقطار » فى الديارات فى وصف دير عبدون ، وعزاه لابن المعتز من قصيدة أولها :

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر   ودير عبدون هطال من المطر

ولفظه : « وغاب ضوء هلال » وليس « وغاب ضوء قمير » والبيت من بحر البسيط .

أرادها الخالق سبحانه . والحق سبحانه حينما يتكلم فى قضية قد تقف فيها العقول يأتى لها بالرمزية بحيث يستطيع العاقل المفكر الذى يقرأ الأساليب ويُدقِّقها أنْ يصل إلى مطلوب الله فيها ، أما مَنْ حُرِم هذا الاستعداد فيمرُّ عليها مروراً عابراً لا يصل منه إلى شىء .

ونقول فى هذه المسألة الكونية : صحيح القمر يسبق الشمس ، لكن الليل لا يسبق النهار ، وتأمل هذا العلاج بالأساليب . والحق سبحانه إذا قال : ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾[يس] فإنه سبحانه لا يقول ذلك إلا إذا كان هناك معتقد بأن الليلَ يسبق النهارَ ، فأراد سبحانه أنْ يُصحِّح لهم هذا الاعتقاد ، فنفى أنْ يسبق الليل النهار ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾[يس] وهذا يعنى أن عندى قضية هى : ولا النهار يسبق الليل .

إذن : المحصلة لا الليلُ يسبق النهارَ ، ولا النهارُ يسبق الليلَ ، فالقضية التى أثبتوها أراد الله نفيها ، والقضية التى نفوْهَا تركها على حالها .

لكن ، كيف يتأتَّى لهم هذا الفهم ؟ قالوا : ظنوا أن الليل يسبق النهار ، لأن اليوم يثبت بالليل لا بالنهار ، ففى صيام رمضان مثلاً يثبت بداية اليوم من الليل ، فلما كان ذلك ظنوا أن الليلَ يسبق النهارَ ، إذن : عندهم قضية مقطوع بها ، هى أن النهار لا يسبق الليل ، وهذه لم يتعرض لها القرآن وتركها كما هى ، أما القضية المخالفة للآية الكونية فصححها لهم ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

إذن : نحن أمام لغز يقول : الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، كيف ؟ قالوا : لو أن الله تعالى خلق الأرض

مسطوحة مواجهةً للشمس لكان النهار أولاً ، ثم تغيب الشمس فيحلُّ الليل ، أما لو كانت الأرض غير مواجهة للشمس لكان الليل أولاً يعقبه النهار ، لكن الحقيقة أن الله تعالى خلق الأرض على هيئة كروية بحيث لا أسبقيةَ لليل على نهار ، ولا لنهار على ليل لأنهما وُجدا معاً في لحظة واحدة ؛ لأن الأرض مُكوَّرة ، فما واجه منها الشمسَ كان نهاراً ، وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً .

لذلك حلَّتْ لنا هذه الآية مشكلة طال الجدال حولها هي : كروية الأرض .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس] يسبحون من السبح، وهو قَطْع المسافة على ماء لين ، فهي حركة فيها انسيابية ، ليست على أرض تدبّ عليها الأقدام ، وهذا مثال لحركة الأفلاك ، وهذه الحركة السبحية يكون كل جزء منها مُوزَّعاً على جزء من الزمن .

وهذه الحركة ليس لدينا المقاييس التي ندركها بها ، إنما نعرفها من جملة الزمن مع جملة الحركة ، فمثلاً لو وُلد لك مولود وجلستَ ترقبه وتلاحظ نموه ، فإنك لا تلاحظ هذا النمو ، ولا يكبر الولد في عين أبيه أبداً ، لماذا ؟

لأن نموه لا يأتي قفزةً واحدة يمكن ملاحظتها ، إنما يُوزَّع النمو على الزمن ، لكن إذا غِبْتَ عن ولدك عدة شهور أو سنوات فإنك تلاحظ نموه حين تعود وتراه ؛ لأنك تلاحظ مجموع النمو طوال فترة غيابك عنه .

فمعنى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس] يعني : يسيرون سيراً انسيابياً متتابعاً يُوزَّع على الزمن .